الوراثة الاجتماعية

تطغى على الوراثة الطبيعية

كنا في حفل مائلي يجمع عدداً غير قليل من كرام الناس وكبرائهم. وكان أحد أصدقائي إلى جانبي يحادثني وأنظارنا تطوف في الحضور. فأومأت إلى فتى جميل سترعرع يراقص فتاة حسناء وقلت لصديقي أنظر الى ذلك الفتى الذي يراقص بنت فلان.

قال: أجل

قلت أليس هو ابن صاحبنا فلان الذي عرفتني به الآن. ما وشكت ما أرى هذا الفتى؟

فالتفت صديقي إليَّ بدهشة وقال: كيف عرفت؟ من قال لك؟

قلت: «من يشابه أبه فما ظلم». بينهما شبهٌ لا يخفى حتى الآن على مقربة منا. أجل طرفك بينهما ألا ترى تشابهاً.

فحملق فيَّ وقال: نعم هو ابنه بالتبني لا بالطبيعة تبنّاه منذ ولادته عن يد طبيب مولّد في مستشفى. وأبواه مجهولان: حتى أن الطبيب لا يعرف الوالدة ولا اسمها. ما لبثت من هي وبعد أن مضت أمه أيام نفاسها القليلة لم يعد يراها ولا عرف عنها شيئاً. لا أدري من فضيحة، وترجته أن يتعرف بالطفل كما تلهمه إنسانيته. وكان الطبيب يعرف أن صاحبنا هذا يتوق إلى تبني ولد لأن زوجته كانت عاقراً، فعرض عليه الصفقة فاغتنمها شاكراً. وأظن أن الولد لا يعرف حتى الآن أنه ابنه بالتبني، ولا أن أبويه مجهولان إلا إذا كان أحد الفضوليين قد همس ذلك في أذنه. وقد لا يصدق الفتى هذا الهمس لما يراه من حب صاحبنا له، فهل ترى حقيقياً أن بينهما تشابهاً.

فقلت كذا أرى، وإن كنت أنت لا ترى فلأنك عارف أن الفتى ليس ابنه فلا يتراءى لك الشبه كما يتراءى لي. ألا يمكن أن أم الفتى كانت خليلة ... لصاحبنا.

قال: كلا البتة. لأن صاحبنا هذا صديقي الحميم منذ عهد الشباب وأعرف عنه أشياء كثيرة. فلو كانت له خليلة لعرفت. فهل أنت راءٍ تشابهاً قوياً بين صاحبنا والفتى.

قلت. نعم وإلا لما لفتَ نظرك للأمر. وأما أنت فلا ترى التشابه لأنك صديقي

الزمان ألفت رؤية الاثنين وفي مخيلتك تفاصيل ملامح كل منهما أي جزئياتها . وهذه لا تتشابه إلاَّ بعض التشابه، ولكن كليات الملامح متشابهة وهي التي دلتني على النسبة بينهما لأن عهدي بهما الليلة فقط . فلا ينطبع في مخيلتي إلاَّ كليات الملامح . فأراهما متشابهة لأني متأكد أنهما لا يشتركان بالدم .

فأنعم صديقي النظر في الفتى وفي أبيه ثم قال : لعلك مصيب بعض الاصابة فيما ترى . انه لأمر عجيب .

قلت لا تعجب ولا تستغرب الأمر ، لأن الوراثة الاجتماعية تطغى على الوراثة الطبيعية (البيولوجية) ولا سيما إذا كان الطفل منذ بدء حياته ينمو في حجر زوجين سواء كان ابنهما من لحمهما ودمهما، أو لم يكن لأن للعشرة تأثيراً كبيراً في ملامح الاشخاص كما أن لها تأثيراً على الاخلاق بفعل التقليد والمحاكاة . والعشرة هي إداة الوراثة الاجتماعية .

قال : ماذا تعني بالوراثة الاجتماعية . وما هو الفرق بينها وبين الوراثة الطبيعية . نحن نعرف أن الولد الأبيض يأتي من والدين أبيضين ، وإن الأسودين لا يلدان إلاَّ طفلاً أسود، وحبة الحنطة لا تنتج إلاَّ سنبلة قمح ، والكلبة لا تلد سنوراً ، كذا نفهم الوراثة الطبيعية. فما هي الوراثة الاجتماعية ؟ وكيف تطغى هذه على تلك ؟

قلت : سؤالان وجيهان ، ولا سيما الثاني منهما . فاعلم يا صاحبي إن التقليد أو المحاكاة غريزة في الأحياء من أدناها إلى الانسان أعلاها . تراها في القرود مثلاً ، فالقرد الصغير يقلد أو يحاكي أمه أو سائر القرود في كل حركاتها، بل يقلد البشر أحياناً، وكذلك الحيوانات العليا وأشباه الانسان كالأورانوتان والشمبانزي والغورلا ، حتى النسور تقلد صغارها كبارها وتحاكي بعضها بعضاً ، ولولا خلة التقليد هذه لما استطاع حيوان أن يعيش . فاذا لم ير العجل أمه ترعى العشب في الحقل فلا يعرف أن يرعى ولا يعيش، واذا لم ير العصفور أمه تنقد الحب فلا ينقده ولا يعيش . وكذلك الطفل البشري منذ يعي للدنيا يجعل يقلد أمه ثم أبويه معاً في كل ما يفعلانه منذ الحداثة إلى الرجولة .

قال : حقاً هذا ما نلاحظه . ولكني أستغرب سبب هذا التقليد أو هذه المحاكاة .

قلت : ان الحركة سنة من سنن الحياة بل هي أهمها . والحركة في الأحياء ولا سيما العليا، وفي الانسان وأشباهه تتوقف على تحرك العضلات بإيعاز الأعصاب . ومادامت عضلات الصغار مماثلة لعضلات الكبار تمام المماثلة فحركات أعضاء الصغار لا يمكن أن تكون إلاَّ مماثلة لحركات أعضاء الكبار. وإذا كانت للطاقة البدنية في كل حي لا بد أن تصرف في سبيل نفع الحي فلا بدَّ أن تجري على أيدي العضلات التي تحرك الأعضاء . فالفرخ الذي لا بدَّ له

ان يصرّف طاقته في تناول الغذاء لا يجد منفذاً لهذه الطاقة إلاّ في منقاره قبل كل شيء. وإذ يرى أمه تنقر الحب يرى أن منقاره يطاوعه في محاكاة أمه في نقر الحب ولا يجد صعوبة للفوز بمحاكاة أمه. ولكنه لا يرى منقاره يطاوعه في التهام الطعام إذا رأى هرّة أو كلبة تلتهم الطعام لأن عضلات منقاره لا تطاوعه على الالتهام، فعضلات منقاره تطاوعه في تقليد أمه ولا تطاوعه في تقليد الهرّة أو الكلبة.

فالتقليد أو المحاكاة تتوقف على عضلات الأعضاء القائمة بعملية المحاكاة.

وهكذا الطفل البشري منذ يشرع يعي ويفهم يشرع يقلد أمه في حركاتها، ثم يشرع يقلد أباه وأخاه في حركاتهما أيضاً، لأن عضلات يديه ورجليه ووجهه وعنقه وكتفيه الخ من طراز عضلاتهم. فإذا تحرّك منهم فيه تحرك بمحكم طبيعة تكوينه كحركاتهم تماماً، فيمشي كما يمشون ويحرّك ساعديه كما يحرّكون، وهكذا دواليك.

أما وقد علمت سر خلة المحاكاة في الحيوانات ولاسيما العليا صار في وسعك أن توافقني على أن الطفل أو الغلام أو الفتى يكتسب ملامح من رياه سواء كان أبوهما الطبيعي أو بالتبني، لأنه يقلدهما في جميع حركاتهما. وأول ما يأخذ فيهما هو النطق، فمنذ السنة الثانية يبتدئ يلفظ الكلمات التي يسمعها منهما وهما يكرران لفظها لكي يقلدها فيحسنه. فإن كان عربيًّا نطق الأحرف التي يتعذر على بعض الأجانب نطقها كالحاء والخاء والعين والغين. لأن عضلات فكيه وحلقه وحنجرته تتكيف حسب نطق هذه الأحرف. ثم اعلم أن تكيف لنطق ألفاظ اللغة جميعاً ولا يلبث أن يملك معظم كلمات اللغة فيتكلمها بلهجة والديه أو من يحتضنه ويربيه.

ولما كانت عضلات التكين والحنجرة متصلة بعضلات الذقن والخدين والعنق الخ فلا بدّ أن تتكيف السحنة بتكيف هذه العضلات. ولما كان لكل إنسان لهجة خاصة في النطق ونبرات الصوت ونغماته لم يكن بد من تأثير هذه في العضلات، وبالتالي في سحنة الوجه وقسماته الخ. فلا تستغرب إذاً إذا شابه الغلام حاضنيه في قسماتهما وسيماتهما. ولو ظهر الآن والد هذا الطفل الطبيعي لما رأيت ملامحه تشابه ملامحهما أكثر مما تشابه ملامح صاحبنا هذا وزوجته.

ولو جئنا بطفل أجنبي قل — صينيًّا مثلاً — وربيناه بيننا الى أن صار غلاماً ثم شابًّا لرأيناه يختلف سحنة عن بني قومه ولو بعض الاختلاف، ولرأيت فيه كثيراً من ملامح القوم الذين ربي بينهم. ولا ريب أنه يتكلم لغتهم بنبراتها ونغماتها وبلفظ الأحرف التي تختص اللغة بها.

ثم هناك حركات عضلية غير حركات نطق الحروف . هناك الضحك والبكاء والصخب والغضب والمشارعة . ولكل هذه تأثير في ملامح الوجه . ولا يخفى عليك أن ضحكات الناس تختلف باختلاف الوجوه . يكاد يكون لكل شخص ضحكة ، كما أن لكل شخص بصمة أصبع . وكذلك لكل شخص نغمة في الكلام، حتى انك اذا سمعت شخصاً يتكلم وأنت لا تراه عرفت من هو إذا كان من معارفك وتعوّدت أن تسمعه.

ولا ريب أن الانسان يكتسب شكل الضحكة ونغمة الكلام ممن ربوه .

وهناك حركات للمشي تقتبس من حركات مشي المربين . لاحظ فتانا هذا انه يمشي مشية الخيزل فيتمايل قليلاً، ثم لاحظ مشية أبيه أيضاً، تر أن تلك نسخة ثانية من هذه . ولاحظ أيضاً أن كتفيه ترتفعان ككتفي ابيه لأنه يقلد أباه في المشي وفي حركة الذراعين والكتفين والوركين ، فصارت هذه خلقة فيه .

واذا جئت تدرس جميع حركاته الدقيقة وحركات أبيه رأيت كل حركة له نسخة من مقابلها من حركات أبيه

لذلك ترى يا صاحبي ان جميع عاداتنا وأزيائنا ولغتنا وعقائدنا إنما هي صنيعة الوراثة الاجتماعية التي نتوارثها بحكم التقليد والمحاكاة . ثم سألت صديقي .

يا ترى هل عقيلة صاحبنا موجودة في هذا الحفل .

قال : رحمها الله ماتت منذ عشر سنوات وكانت عاقراً فاضطر صاحبنا أن يتبنى هذا الفتى في حياتها ، ولم يشأ أن يتزوج أخرى لأنه يخشى أن تجافي الزوجة الثانية الفتى لأنها ليست والدته ، وهو يحبه حباً جماً .

فقلت— أرأيت كيف تؤثر العشرة في الأخلاق حتى في القلب ، والعاطفة . ولو رزق صاحبنا ولداً من زوجته لما أحبه أكثر من حبه لهذا الفتى .

لو كانت زوجته في قيد الحياة الآن لكنت ترى بين الزوجين تشابهاً أيضاً في السحنة والقسمات فضلاً عن سائر الحركات الدقيقة، لأن عشرة عشرين سنة تطبع الزوجين في طابع واحد للأسباب التي قدمتها لك . يمكنك أن تمعن النظر في ملامح أي زوجين قديمين في الزوجية من بين الآخرين هنا الآن فترى ما يؤكد لك هذا .

ترى ذلك جيداً في الأخوة الذين يعيشون في بيت واحد ، ويندر أن تجد أحداً منهم يختلف عن اخوته في السحنة والحركات

قال هذا طبيعي لأنهم نشأوا نشأة واحدة .

قلت : ليس كل تشابه راجعاً الى الوراثة الطبيعية البيولوجية وانما بعضه عائد الى

العشرة . لو كان أحد البنين قد فارق اخوته منذ طفولته زمناً طويلاً ثم عاد اليهم لرأيته يختلف عنهم اختلافاً ظاهراً في سيماته وحركاته ونبرات صوته ولهجته .

ومجمل ما أريد أن أقوله ان ملامح الانسان جميعاً حتى حركات أعضائه نتيجة حركات عضلاته — عضلات وجهه وفمه وحنجرته وعنقه وحركات يديه وساقيه وقدميه الخ — . وهذه نتيجة محاكاة الانسان في جميع حركاته لحركات ذويه الذين يعاشرهم مدة طويلة وعلى الأخص والديه .

فالوراثة الاجتماعية تشاطر الوراثة الطبيعية في تكوين ظواهر الفرد من سيماء وملامح والخ ولكنها تستقل عنها في تكوين حياة القوم الاجتماعية . وهي سر اختصاص كل قوم بلغته وعقائده وعاداته وآرائه وبها يختلف قوم عن قوم وشعب عن شعب وأمة عن أمة كما هو معلوم .

فترى أن لقوة التقليد أو المحاكاة تأثيراً عظيماً في شخصية الفرد كما في شخصية الجماعة وهي سر القدوة . والقدوة هي العامل الأقوى في التربية الأخلاقية . ولذلك يجب أن ينتبه الوالدان لسلوكهما أمام أولادهما

ن . ح

بعض مفاخر الاميركان

للمغفور له حافظ ابرهيم

أتي رجال الدنيا الجديدة مهلاً قد شأوتم بالمعجزات الرجالا
وفهمتم معنى الحياة فأرصد تم عليها لكل نقص كمالا
وحرصتم على العقول فحرّمـ ـتم عصيراً يراد قوم حلالا
وقدرتم دقيقة العمر حرصاً وسواكم لا يقدّر الآجالا
كم أطلتم على غدٍ كل امرٍ والجميل الأمور يبغي المحالا
قد تحديتم المنية حتى همّ أن يطلب البقاء الروالا
وطويتم فراسخ الأرض طيّاً ومشيتم على الهواء اختيالا
ثم سخرتم الرياح فسـتم حيث شئتم جنوبها والشمالا
تسرجون الهواء إن رمتم السـير وفي الأرض من يشدُّ الرحالا
وتحدتم موج الأثير بريداً حين خلتم أن البروق كسالى
ثم طولتم الكلام مع النجم فهمتم الشـماع مقالا
رُمتم في كل أرض صروحاً تنطح السحب شامخات طوالا